

الألوهية في القرآن الكريم
(وجود الخالق وتوحيده)

بقلم

د. مصطفى مسلم محمد

الباحث في كلمات

- الاسم : د. مصطفى مسلم محمد .
- تاريخ ومكان الميلاد : ١٩٤٠م - عين العرب - سورية .
- المؤهلات العلمية : المرحلة الجامعية - كلية الشريعة بجامعة دمشق ١٩٦٥م .
الدراسات العليا - الماجستير - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر قسم التفسير وعلوم القرآن ١٩٦٩م .
الدكتوراه - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر قسم التفسير وعلوم القرآن ١٩٧٤م .
- العمل الحالي : أستاذ مشارك بقسم القرآن وعلومه بالكلية .
- أهم البحوث والمؤلفات : (١) تحقيق تفسير عبدالرزاق الصنعاني .
(٢) اعجاز القرآن .
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي .
لم يطبع منها شئ .

الألوهية والفطرة :

إن قضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة، قضية راسخة في الفطرة الإنسانية عميقة الجذور، عمق الشعور بالذات البشرية واحتياجاتها وعجزها وافتقارها إلى الملجأ والملاذ.

فكما يشعر الإنسان بعمق غرائز الأبوة وحب البقاء وحب التملك . . في كيانه ويشعر بالقلق والاضطراب في حياته إن لم يشبعها بالطريقة السليمة فكذلك شعوره بالاضطراب والقلق إن لم تشبع غريزة التدين فيه بإشباع الأشواق الروحية وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق .

وقبل حلول الروح الإنسانية في هذا الجسد المادى، في عالم الذر، كان هذا الغرس وكان هذا الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾
أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ
بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ
الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

وفي الصحيحين من حديث شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقال للرجل من أهل النار، يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت

عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي^(١).

إن الأصل في النفس الإنسانية الفطرة التي فطر الله الناس عليها فالميل إلى الحق والأخذ به، والتوجه إلى الخالق بالخضوع والطاعة هو الأصل وهي الفطرة، إلا أن البيئة والمجتمع، ابتداء بالمجتمع الضيق: الأسرة، وانتهاء بالتيارات الاجتماعية في المجتمع الواسع هي التي تحدد مسار هذه الفطرة في السنوات الأولى من حياة الطفل.

وإلى هذا يشير الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه. هل تنتج البهيمة إلا بهيمة جمعاء هل تحس منها من جدعاء)^(٢). رواه الشيخان من حديث أبي هريرة.

والمنهج القرآني في تقرير عقيدة الألوهية يعتمد الفطرة الإنسانية السليمة نقطة انطلاق في البحث والتقرير وأسلوب العرض وإقرار النتائج.

وفي الصفحات التالية نتعرف على أبرز السمات في المنهج القرآني في تقرير عقيدة الألوهية:

أولاً : البشرية خلقت مهتدية مؤمنة :

يبين القرآن الكريم أن الإنسان الذي كرمه من بين مخلوقاته (خَلَقًا وَخُلُقًا استعداداً وطاقات . . .) وحمله الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال.

لم يكن خلقه عبثاً ولم يكن ليتركه سدى، بل خلقه لاستخلافه في الأرض وعبادته فيها.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ
فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق جـ ٧ ص ١٩٨، وصحيح مسلم صفات المنافقين جـ ٨ ص ١٣٤.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز جـ ٢ ص ٩٧، وصحيح مسلم في كتاب القدر جـ ٨ ص ٥٢.

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ^ط

قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (البقرة/ ٣٠)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ

مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ (الذاريات/ ٥٨-٥٦)

ولم ينزل أبو البشر إلى الأرض إلا والهدايات مرافقة له ، قد حددت له المهمة التي يسعى إليها وأسلوب التعامل الذي يتعامل به مع الكائنات الأخرى من بنيه وغيرهم .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ (البقرة/ ٣٨)

إن الأسرة الأولى في الإجتماع البشرى تكونت في ظل الوحي الرباني ، ومن يتلو قصة ابني آدم وهما عضوا الأسرة الأولى يجد في الحوار الذي دار بينهما أن القضايا الأساسية في العقيدة والسلوك البشرى كانت واضحة المعالم في ذهنيهما

يقول تعالى : ﴿ وَأَنْزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ

ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ

يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ^ط قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ

﴿الْمُتَّقِينَ﴾ ٢٧ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ
يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ٢٨ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ٢٩ وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ٣٠ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ
قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣١ فَبَعَثَ اللَّهُ
غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ
قَالَ يَوْيَلْتَيَّ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ
فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ٣٢ (المائدة / ٢٧-٣١)

عن عبدالله ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل^(١) رواه الإمام أحمد والجماعة سوى أبي داود.

فالإيمان بالله سبحانه وتعالى، والتقرب إليه بصالح الأعمال ابتغاء مرضاته، وتقوى الله تعالى والإلتزام بها مدعاة لقبول الأعمال، وخشية الله تعالى من سوء عاقبة الأعمال السيئة والآثام التي تودي بصاحبها إلى النار، والجزاء الأخروي للمحسنين وللمسيئين على ما اقترفوه في الحياة الدنيا.

كل هذه أسس العقيدة الموحى بها في الشرائع السماوية جميعها، كانت واضحة المعالم في أذهان ابني آدم الأولين.

(١) مسند الإمام أحمد ج١ ص ٣٨٣، صحيح البخاري، كتاب الجنائز ج٢ ص ٧٩. وصحيح مسلم، كتاب القسامة ج٥ ص ١٠٦.

والمجتمعات التي تكاثرت بالتناسل وانتشرت في أطراف المعمورة، كلما أصاب الغبش تصورها في العقيدة، واختلطت أمامها السبل بالانحراف عن سبيل الله أرسل الله سبحانه وتعالى إليها رسلاً لإعادتها إلى الصراط المستقيم ولإزالة الغبش عن عقائدها وتصوراتها.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(فاطر/٢٤)

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(البقرة/٢١٣)

من هنا ندرك انحراف المناهج التي سلكها علماء الاجتماع ومقارنة الأديان، عندما قصدوا الغابات ورؤوس الجبال والمناطق المعزولة عن العالم المتحضر لدراسة عقائد سكان هذه المناطق ليصلوا من خلال دراساتهم هذه إلى أصل نشوء فكرة الأديان ومن ثم تطورها.

وخطأ هذا المنهج يبدأ من افتراضهم الخاطيء أن الإنسان هو الذي يكون عقيدته ويطورها حسب تطور ظروفه المعيشية وحياته الاجتماعية ومستواه الثقافي.

والمنهج القرآني يلغي الافتراض من أساسه لأن عقيدة الإنسان الأول، وعقيدة

الأسرة الأولى كانت عقيدة التوحيد والإيمان بالهدايات الربانية المنزلّة - الوحي - والإيمان باليوم الآخر. وكان الناس أمة واحدة على هذه العقيدة، فلما ابتعدوا عن المنهج الرباني وبعد عهدهم بهذه الهدايات، ووجدت الاختلافات بين الناس أرسل الله إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ويعيدهم إلى حظيرة التوحيد وإلى الالتزام بالمنهج الرباني مرة أخرى.

والرسالات لم تنشأ في تلك المجتمعات المتخلفة أو البدائية، بل كان الرسل يرسلون لتبليغ دعوة الحق إلى من بأيديهم زمام الحكم والسلطة، وكان الصراع بين أتباع الحق: من الأنبياء وأتباعهم، وبين الطواغيت أهل الأهواء والمترفين من أهل الشهوات

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ ۖ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ۚ ﴾

(النحل / ٣٦)

ومن يقرأ قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في القرآن الكريم يجد أن الرسالات السماوية برزت بين المجتمعات الراقية المتحضرة، وقصدت من بيدهم دفعة القيادة والسيادة.

- ففي قصة نوح عليه السلام، نجد التبليغ والصراع بينه وبين الملأ من قومه، وكلمة الملأ في اللغة تدل على القوم الذين يملأون العين بوفرة عددهم وقوتهم وغناهم.

- وأحداث قصة إبراهيم عليه السلام جرت مع نمرود الذي قيل إنه أحد الكافرين اللذين حكما العالم القديم تارة، ومع ملك مصر تارة أخرى.
- ومثل ذلك في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه.
- وقصة عيسى وزكريا ويحيى عليهم السلام مع السلطة الرومانية من جهة، ومع أهل النفوذ والمكر والحيلة من اليهود من جهة أخرى.

ويحدد لنا القرآن الكريم عاقبة المكذبين في أحد الأمور التالية :

- ١ - انزال العذاب المستأصل عندما يكذبون بالآيات التي يطلبونها تحديداً ومعاجزة

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ

وَأَزْدٍ جَرٍ ۖ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ ﴾ (١٠) فَفَتَحْنَا

أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ وَجَارَيْنَا الْأَرْضَ

عَيْنُونَا فَأَلْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قُدِرَ ۖ ﴾ (القمر / ٩-١٢)

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۖ ﴾ (٣٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ۖ

إِنَّا إِذَا لَنِي ضَلَّلٍ وَسُعِرٍ ۖ ﴾ (٣٤) أَهْلَقِيَ الَّذِ كُرْ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا

بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۖ ﴾ (٣٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۖ ﴾ (٣٧)

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ۖ ﴾ (٣٨)

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ
الْمُحْتَضِرِ ﴿٣١﴾

(القمر / ٢٣-٣١).

وهكذا مع عاد وقوم لوط وآل فرعون وغيرهم .

٢ - أو القهر والخذلان والتشرد في الأرض على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
أو أتباعهم

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾

(غافر / ٥١)

٣ - وإن بقى المكذبون برسالة الرسول فترة فهي فترة محدودة ريثما يستكمل أهل
الإيمان مقومات استحقاق النصر في نفوسهم ، والعاقبة للمتقين . فآل هذه
الحالة إلى إحدى الحالتين السابقتين أو الدخول في دعوة الخير والفلاح .

وتهمنا الحالة الثانية - حالة التشرد والتمزق بعد انتصار دعوة الحق ، فكثيراً ما يفر
المعاندون الصادون عن دعوة الحق فيلحقون شعاف الجبال وبطون الأودية والغابات
النائية هرباً من سيف الحق ، وعلى مر الأيام والسنين يطرد الضياع وتباین الأهواء
ويشتد التمزق في نفوسهم بين إلحاح الغريزة التي تفرض إبراز الخضوع والتدين في
حياتهم ، وبين النزوات الضالة المنحرفة ، فتوجد هذه المظاهر التعبدية المنحرفة من
عبادة الآباء والأشجار والظواهر الطبيعية .

فليست الفطرة بحال من الأحوال هي الداعية إلى هذه الأشكال المنحرفة ، بل
البيئة والظروف والتأثر بالمنحرفين هي التي توجد الاتجاهات الضالة ، وخير مثل في
ذلك قصة عمرو بن لحي الذي أدخل عبادة الأصنام في جزيرة العرب حيث لم يكن
الناس قبله يفكرون بمثل هذه الضلالة .

فإذن حالة الشرك والوثنية والانحراف حالة طارئة وهي الحالة الناشئة عن التخلف والعزلة ونتيجة الفرار من نور الحق .

هذا هو منهج القرآن في بيان هذه الحقيقة التي انحرف عنها الماديون المعاصرون ، الذين ظنوا أن الإنسان هو الذي يوجد معتقده ويطوره حسب مراحل حياته الاجتماعية وحسب وسائله المدنية التي يستخدمها في حياته المعاشية .

إن هناك تبايناً تاماً بين الإدراك العقلي المستهدي بنور الوحي الإلهي ، وبين المدركات العقلية المستمدة من الأهواء البشرية .

ولا علاقة لنوعي المدركات هذه بوسائل المعيشة أو الوسائل المدنية والمستوى المعاشي للإنسان .

فإن الإدراك العقلي الصحيح المبني على نور السوحي الإلهي يكون في أرقى المجتمعات المتمدنة ويمكن أن يكون في نفس الوقت في مجتمع آخر لا يملك من وسائل المدنية إلا أقلها .

كما أن الجاهلية المنحرفة عن هدي الله سبحانه وتعالى - ونقصد بالجاهلية الحالة النفسية التي ينحرف فيها الإنسان عن المنهج الرباني ، كما عرفها محمد قطب في جاهلية القرن العشرين - تكون لدى سكان الغابات وبطون الأودية وشواهد الجبال وتظهر في صور شتى من صور الشعائر التعبدية عندهم في عبادة الطواطم والحجر والشجر وظواهر الطبيعة من رعد وبرق وشمس وقمر . . .

تكون موجودة في نفس الوقت عند سكان ناطحات السحاب ورواد الفضاء ومكتشفي الذرة والعقول الإلكترونية ، وتظهر أيضاً في صور شتى من مظاهر العبودية ، من تقديس للمال ، والإنتاج ، والعلم والطبيعة ، والحزب ، والحرية والعقول المتحررة التي تشترع فتحل وتحرم ، وكلها مظاهر جاهلية مبنية على الهوى .

فلا علاقة بين الهداية والحالة المادية للإنسان كما لا علاقة بين الجاهلية والمستوى المعاشي للفرد والجماعة .

ثانياً : اهتمام القرآن الكريم بالتوحيد أكثر من الاهتمام بإثبات وجود الخالق :

وهذه قضية بارزة جداً يلمسها المتتبع لهدايات القرآن الكريم عند عرض قضايا الألوهية وهذا المنهج متسق تماماً مع المنهج القرآني في تقرير الحقائق وتشريع الشرائع والأحكام . فكل قضية تعتمد على رصيد الفطرة عند الإنسان يأتي التذكير بها عاماً وإجمالاً ، أما القضايا التكليفية التي تثار ليتوصل إليها الإنسان بعقله أو يأتي الوحي ليقرر الالتزام بها ولا تشكل الفطرة أحد مقوماتها ودوافعها ، فإن القرآن يكثر من الاستدلال عليها وتوجيه الأنظار للحكم الربانية في تقريرها وكثيراً ما تذكر دوافع تشريعاتها ، ونتائج الالتزام بها .

وفي القرآن الكريم قضايا كثيرة من هذا القبيل . فمثلاً من الأمور المقررة في الشريعة الإسلامية أن السعي في الأرض لكسب الرزق واتباع الأسباب التي جعلها الله سبحانه وتعالى بين الخلائق للحصول على لقمة العيش ، هذا السعي أمر مطلوب شرعاً ، ومن كان صاحب عيال ولديه القدرة على السعي والكسب يؤخذ إن ترك السعي وضيع العيال ، ولكننا لا نجد أن القرآن الكريم قد تعرض لهذا الجانب - طلب السعي لتحصيل الرزق والمعاش - إلا لماماً ، وفي أحاديث عرضية فمثلاً نجد قوله تعالى :

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(الملك / ١٥)

جاء في سياق الحديث عن نعم الله على العباد الذي خلق لهم وسائل المعيشة وجعل الأرض ذلولة لهم لا تستعصي عليهم عند السعي عليها أو إقامة المصالح في جنباتها . . . فكل ذلك يقتضي شكر النعم المتفضل عليهم بذلك ، وجاء قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ

اللَّهِ ۚ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة / ١٠)

جاءت بعد النهي عن البيع والكسب عند النداء لصلاة الجمعة بعد قوله تعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(الجمعة / ٩)

ويقرر علماء الأصول أن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة .

بل نجد أن بعض الآيات تصرف الهمم عن التفكير بالرزق والكسب لأن الله تكفل بهذا الرزق .

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ مَا أُرِيدُ

مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿

(الذاريات / ٥٦-٥٨)

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا

نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾

(طه / ١٣٢)

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٣١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ

أَمْرِهِ ٣٣﴾ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿

(الطلاق / ٣، ٢)

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
(العنكبوت / ٦٠)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً^(١)).

والحكمة في عدم الدفع للسعي على الرزق واتباع الأسباب في ذلك علماً أنه شيء مطلوب كما قدمنا لأن غريزة الإنسان في حب التملك، وحب البقاء، وحب تطوير وسائل الرفاه والمتعة كل ذلك كفيل بأن يدفع الإنسان إلى السعي في ذلك.

بينما أمور العبادات والتوجه إلى الطاعات والقربات، لا تدفعه إليها الغريزة فكانت الآيات الكثيرة تقررها وتأمرها بها.

ومثل ذلك الحقوق المتبادلة بين الوالدين والأولاد.

فالقرآن الكريم يقرر في آيات كثيرة وجوب الإحسان إلى الوالدين وخفض الجناح لها

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
إِذَا يَبُلُغْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ
لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

(الإسراء / ٢٣، ٢٤)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ج٢ ص ١٣٩٤، ومسند الإمام أحمد ج١ ص ٣٠.

فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ
جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ
ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

(لقمان / ١٤-١٥)

بينما الحديث عن حقوق الأولاد لا يأتي إلا عاماً وعرضاً إما عند الحديث عن نعم
الله سبحانه وتعالى على الإنسان

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفَبِلَبَطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

(النحل / ٧٢)

أو عند نهي الآباء عن ارتكاب الجرائم والفواحش

والحكمة في هذا التركيز على جانب والاقتصاد في الجانب الآخر - والله أعلم - هو
أن رصيد الفطرة وغريزة الأبوة كافية لحمل الوالدين على العناية بالأولاد وإيفاء حقوقهم
كاملة .

أما الإحسان إلى الوالدين فهو من الأمور التكليفية، حيث لا رصيد فطري دافع
فكان التأكيد والاهتمام .

وهذا هو الشأن في ما نحن بصدده من قضية إثبات وجود الخالق، وقضية توحيد

الخالق فإن الإقرار بوجود خالق للكون والاعتراف بوجود خالق للإنسان وتوجيه العبادة إلى خالق الحياة .

هذا أمر فطري في الإنسان ، جبلي لا يستطيع الفكاه منه .

إن قضية الألوهية - الإقرار بوجود إله - مركوزة في الفطرة الإنسانية بحيث يستحيل إجتثاثها مهما بذلت من جهود لإزالتها، إنما كان الذي يجري عليها هو تحريفها عن مسارها وأصالتها وظهورها في صور مشوهة من الانحرافات العقدية مما سبب انحطاطاً في المستوى الخلقي للبشر ومسحاً للملكات والعواطف النبيلة التي ترقىها وتسمو بها عقيدة الألوهية الحققة .

فليست القضية إذن بين إنسان يعبد أولاً يعبد - أو يقر بإله أو لا يقر فالجميع يعبدون بأسلوب أو بآخر .

وإنما الفارق في المعبود: هل الإنسان يعبد الله سبحانه وتعالى المستحق للعبادة فيوحده ولا يتخذ معه نداً ولا شريكاً .

أو أن الإنسان يعبد غير الله من الآلهة التي لا واقع لها في الحقيقة، إن هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم .

فهنا حالتان :

حالة الهدى : فيعبد الناس الله وحده بلا شريك في مراحل البشرية جميعها

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ ۖ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾

(النحل / ٣٦)

وحالة الضلالة : وتختلف فيها المعبودات من دون الله وتختلف باختلاف الزمان والمكان .

لم تعد قضية الألوهية - من حيث اثبات الخالق - من النظريات التي يقام عليها برهان فإن الفطرة الإنسانية السليمة قد شهدت - بضرورة فطرتها، وبديهية فكرتها - بصانع قادر حكيم عليم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
(لقمان / ٢٥)

وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة في السراء فلاشك أنهم يلوذون إليها في حال الضراء .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

(العنكبوت / ٦٥)

يقول الشهرستاني ، في كتابه (نهاية الاقدام في علم الكلام) ص ١٢٤ ، تعقيباً على إقرار الفطرة بوجود الخالق (ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك) .

ثالثاً : منهج القرآن في إثبات التوحيد منهج فطري أيضاً :

يعرض القرآن الكريم قضية التوحيد ويدعو الناس لتوحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد ويقيم الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى ، يسلك في كل ذلك المنهج الفطري من خلال المشاهدات المحسوسة البسيطة التي يتعامل معها الناس جميعاً على مختلف مستوياتهم العقلية وتباين مشاربهم الفكرية .

إن الكون المادي مكون من عناصر مادية بسيطة ومن هذه العناصر البسيطة تتولد أعقد الأشكال وأضخمها ابتداء من الذرة إلى مسارات الكواكب والأفلاك والمجرات .

وكذلك أمر العقيدة فمن المشاهدات الأولية البسيطة في حياة الناس يكون التوصل إلى الإيمان بخالق الكون ومدبره قيوم السماوات والأرض .

إن مخاطبة الناس بما يدركون ، والاستدلال على القضايا بما يحسون وضرب الأمثال بما يفقهون ، والاستدلال من خلالها على ما يعقلون هو الأسلوب الفطري المؤثر الفعال في إيجاد القناعات لديهم وهي الطريقة المثلى لتحريك كوامن الفطرة السليمة واستجاشتها عندهم . إن الأعرابي عندما استدل على قضية عقلية (لا بد لكل حادث من محدث) توصل إلى هذه النتيجة من خلال مشاهداته المحسوسة : البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفساء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدل على السميع البصير؟! . بلى . إنها الطريقة الفطرية في الحاجة والاستدلال فعندما يفتح العاقل عينيه يستفسر عن مشاهداته لما حوله من أوجد هذا؟ ولماذا كان على هذه الهيئة دون غيرها؟ وكيف يعمل هذا؟ وما مصير هذا؟ إن الأسئلة بسيطة ، وفي نفس الوقت هي صعبة؟! . بسيطة في إثارتها، صعبة في الحصول على الإجابة المقنعة التي يطمئن لها القلب ويستسلم لها العقل .

والقرآن بدأ هذه البدايات المبسطة ، وتوصل إلى تلك النتائج الباهرة المقنعة من خلال إقامة البراهين .

ولو ذهبنا نسوق الأمثلة على أسلوب القرآن الكريم الفطري في الحاجة والاستدلال لامتد بنا المجال ، ولكن نستدل على ذلك من خلال آيات سورة الواقعة ، فلنتدبر قول الله تعالى :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾

هذه هي القضية التي يراد اثباتها والاستدلال عليها وهي قضية : تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد وعدم وجود الشركاء له في ذلك :
فما هي الأدلة؟

قول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ (٥٨)

ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ
الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ
وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣)

ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطَلَاءَ فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾

ويقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (٦٨)

ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ
جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَلَعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ
رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

(الواقعة / ٥٧-٧٤)

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآيات :

«وفيه تتجلى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية، وفي تناول الدلائل الإيمانية، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود..»

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره.. إنه المصدر الذي صدر منه الكون، فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون..

المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النسل، والزرع، والماء، والنار أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة، ومسقط ماء، وموقد نار.. ومن هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة.. وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية وأعظم الأسرار الربانية.. فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان، وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان..^(١)

رابعاً : ربط قضايا العقيدة بمصالح العباد في حياتهم المعاشية :

إن العقيدة النظرية المجردة مهما كانت مثالية النظرة إلى الأمور، ومهما كانت سليمة البراهين، قوية الحجج، تبقى عقيدة باهتة باردة في زاوية من زوايا العقل البشري غير فاعلة في النفس الإنسانية، لا تحرك المشاعر، ولا تطلق البطاقات.

أما إذا كانت العقيدة متوغلة في النفس الإنسانية، محركة النوازع الفطرية فيها من الرغبة والرغبة، تستجيش المشاعر وتثير العواطف، وتتدخل في حياة الإنسان اليومية وتربط مصالحه المباشرة بشئونها.

(١) في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٤٦٦. باختصار.

فلا شك أن عقيدة هذا شأنها تكون عقيدة فعالة محركة مسيطرة على تطلعات النفوس وعلى خلجات القلوب .

وإذا تتبعنا أسس العقيدة الإسلامية من خلال عرض القرآن الكريم نجدها كلها لها أثر فعال في حياة الناس ومصلحتهم في الحياة الدنيا، وعقيدة الألوهية بشكل خاص .

فأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته العلى تتجلى فيها هذه المعاني، فإن إلهاً من صفاته: الخالق، الرازق، المهيمن، العزيز، الجبار، المنتقم، الضار، النافع، ذو الجلال والإكرام، الغفور، الودود، الرحمن، الرحيم، إنه إله يرهب جانبه، ويتقى غضبه ونقمته، ويرغب إليه، ويسعى للحصول على رضاه

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ قُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ
قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ

يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ^طفَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

(يونس / ٣٦-٣٢)

والله لا يملك ضرراً ولا نفعاً ليس إلهاً حقاً ولا جديراً بالعبودية :

قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴾

(المائدة / ٧٧)

ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم في شأن الألوهية ، لوجدنا الدعوة الصريحة إلى توحيد
الإله الذي في قبضته مصائر الأمور، تحت سطوته مقادير الأرزاق فالكون الذي يحيط
بالإنسان قد سخره الله سبحانه وتعالى لمصالح البشر .

فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ
رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ^{قَلْبَ} إِنْ إِلَّا أَنْسَنَ لظُلُومٍ
كَفَّارٌ ﴾

(إبراهيم / ٣٢-٣٤)

والأرض وما فيها من مخزونات الطاقات والأقوات ، وما فيها من تناسق وانسجام وتوازن ، كلها من صنع الواحد اللطيف الخبير جعلها مهياة لمصالح عباده :

فقال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

مَعْلُومٍ ﴿الحجر / ١٩-٢١﴾

والأنعام والبهائم التى تفوق الإنسان قوة وجلداً ، سلب الخالق سبحانه وتعالى منها الرغبة في المقاومة والتمرد وجعلها ذلولة فمنها يركب ومنها يأكل :

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْيَحُونَ

وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا

بِالْغِيَةِ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِنْفِسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايْزٌ وَلَوْ شَاءَ

لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿النحل / ٥-٩﴾

وحيثما قلبنا النظر في أرجاء الكون الفسيح وفي جنبات الأرض المترامية الأطراف وتمعنا في عوالم الكائنات الحية من الدواب والطيور والحشرات لو جدنا قضية التسخير لمصالح العباد تصادفنا في كل وجهة وفي كل مجال .

كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّسُقْيِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿ ٦٦ ﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ ٦٧ ﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ٦٩ ﴾

(النحل / ٦٥-٦٩)

ولو تتبعنا مادة (سخر) وكلمة (لكم) في القرآن الكريم لوجدنا العجائب من مجالات اهتمام القدرة الإلهية بمصالح عباده في هذا الكون الفسيح .

خامساً : مجالات الاستدلال على قضية الألوهية :

لما كان تصور قضية الألوهية يعطى مدلولاً معيناً من حيث الخلق، والتدبير، والتسخير ودقة الصنع - العليم اللطيف الخبير- فإن آيات القرآن الكريم تناولت في سياق الاستدلال على الوحدانية وما يستلزمها من صفات الجلال والجمال والكمال .

(أ) تناولت الكون الفسيح لبيان عظمة الخالق جل جلاله ، وسعة ملكه ، ودقة علمه المحيط بكل شيء ، ولطفه ورحمته بمخلوقاته :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾
(الحديد / ٤-٦)

(ب) وتناولت آيات الذكر الحكيم في سياق الاستدلال على تفرد الخالق سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين ، تناولت الإنسان في خلقه ، وخلقته ، وفكره ، وغرائزه وفطرته ، واستعداداته ، وأحواله النفسية والسلوكية في ارتقائه وهبوطه وتعاليه واستفاله

ولو ذهبنا نستعرض حديث القرآن الكريم عن الإنسان لوقفنا مدهوشين من هذا العرض الجذاب المثير: ولوقفنا على جليلة الأمر في تفرد الإنسان بنوع من الاهتمام لا تحظى به المخلوقات الأخرى .

ففي خلقه وتكوينه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ
مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا
ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(المؤمنون / ١٢-١٤)

وفي خواصه واستعداده :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن / ١-٤)

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾
مِنْ عَلَقٍ ﴿٣﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق / ١-٥).

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(٧٦)

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٢-٧٣﴾ (الأحزاب / ٧٢-٧٣)

يقول الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه دلائل التوحيد (ص ٢٩).
«ولما كانت معرفة العالم كله تصعب على الإنسان الواحد لقصور أفهام بعضهم
عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم جعل تعالى لكل إنسان من نفسه
وبدنه عالماً صغيراً أوجد فيه مثال ما هو موجود في العالم الكبير ليجري ذلك من العالم
مجري مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر
والليل والنهار، فإن نشط وتفرغ للتوسط في العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو
العالم، فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه، ويتسع فهمه وإلا فله مقنع بالمختصر
الذي معه، ولهذا قال تعالى:

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات / ٢١)

(ج) كما تناولت الآيات القرآنية الحيوان، خلقه، غرائزه، وظيفته تجمعها
وعمله.

إن حديث القرآن الكريم عن الحيوان وعالمه حديث الخالق الذي خلق ما في
الكون لغاية، وأسند إليه دوراً، وهداه إلى سبل معيشته وتحصيل رزقه، وأسلوب
التفاهم والمعايشة بين أفراد وجماعته.

إنها مخلوقات الله سبحانه وتعالى الذي لم يجعل في هذا الكون شيئاً مجرداً عن المنفعة
أو مجرداً عن مهمة، أو خلق عبثاً. إن تجريد أي شيء من وظائف ومهمات يتنافى مع
الحكمة العليا في الخلق.

ونكتفي بإشارات مقتضبة في عالم الحيوان، وقد مرت جملة من الآيات تتحدث عنها
عند الحديث عن ربط أمور العقيدة بمصالح العباد في الحياة الدنيا.

ونشير هنا إلى جوانب لم تذكر هناك تتعلق بالحيوان :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧)
وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

(الأنعام / ٣٧-٣٩) .

ولقد جاءت هذه الآيات الكريمة في سياق موقف المشركين من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم لا يكذبونه، لأنهم لم يجربوا عليه كذباً قط، ولكن الظالمين كانوا بآيات الله يمحذون فلا يؤمنون بالآيات الكريمة ولا بالدعوة التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم، ومع ما في ضمن هذا الكلام الذي قالوه من تناقض فكيف لا يجرب عليه كذب طيلة حياته، ثم يكذب أعظم كذبة على خالق السماوات والأرض - إلا أنهم قالوها وارتضوها، والعقل المشرك يقبل مثل هذا التناقض ويستسيغه، طلبوا معجزات وخوارق على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فجاءت اللفتة إلى هذه الأمم التي تعيش بينهم من غير البشر. إنهم لو تدبروا ما حولهم لاكتفوا بما يرون عن طلب الآيات، فإنهم ليسوا وحدهم في هذا الكون، بل حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمر منتظم، يوحى بالقصد والتدبير والحكمة، ويوحى كذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله .

«إنه ما من دابة تدب على الأرض - وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة وغير ذلك من الكائنات الطائرات، ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو يتنظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك. . شأنها في هذا شأن أمة الناس، ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشملها، وعلم يحصيه، وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها فيقضي في أمرها بما يشاء»^(١).

إن هذه الكائنات الحية المبتوثة في جنبات الأرض آية بل آيات، في الدلائل على خالقها، ورازقها، وهاديا إلى سبل معاشها، وإلى وظائفها. .

ولكن العقول والقلوب الغافلة لا تنظر نظرة التدبر فيما حولها لتهتدي إلى مبدع هذه المخلوقات ومبدع أنظمة حياتها. بل تريد خارقة مادية كما أرسل الأولون يريدون إنزال كنز من السماء، أو إتيان الله والملائكة قبيلًا، أو تفجير الأنهار خلال ديارهم أو زحزحة الجبال عنهم، أو رقي النبي صلى الله عليه وسلم في السماء لإحضار كتاب من السماء يقرؤنه وفيه أسماؤهم، آمن يا فلان وآمن يا فلان.

أما القلوب المهتدية بنور الحق الباقية على فطرتها السليمة فإن مجرد لفت نظرها إلى ما حولها من الإبداع والانتظام كفيل لإشراق نور الإيـان فيها وتحريكها إلى الخير والصـلاح والفلاح.

(د) ولا يقل اهتمام الآيات الكريمة في مجال الاستدلال بالنبات وعالمه وشؤونه عن عالم الإنسان والحيوان.

فهناك أيضا الإبداع، وهناك النظام وأداء الدور الوظيفي في خضم هذه الحياة.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَرْنَا

بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٢ ص ١٠٨٠.

حَبَّامُتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ
مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ
أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ (الأنعام / ٩٩)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ
الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل / ١١)

هذه أبرز المجالات التي تعرض القرآن الكريم من خلالها للاستدلال على الخالق سبحانه وتعالى، وهي المجالات الرئيسية في هذه الحياة الدنيا.

وهذه بعض الأساليب القرآنية في بيان عقيدة توحيد الخالق سبحانه وتعالى ويضيق المجال عن تتبع الجوانب الأخرى من عرض الأساليب القرآنية في إثبات صفات الكمال المطلق والجمال والجلال لله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن صفات النقص وما لا يليق بالذات القدسية.

إلا أننا لا نغفل أن المراد بهذا البيان الضافي وهذه الأساليب المتنوعة في التوضيح والإقناع هو هداية الإنسان إلى الطريق السوي وتعبده لخالقه على بينة ورشاد.

فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون الفسيح الهائل بأفلاكه ومسارات نجومه ومجراته، واختار الكرة الأرضية من هذه المجموعة الشمسية - التي لا تشكّل ذرة هباء

إلى جانب المجرات الأخرى - وأوجد فيها الظروف البيئية المناسبة من ماء وتربة وهواء ودفء . . . لتكون صالحة لأجناس من المخلوقات، وكان على رأس هذه المخلوقات على هذه الكرة الأرضية بنو آدم الذين أكرمهم سبحانه وتعالى بنفخة الروح الإلهية فيه ليتميز عن سائر المخلوقات وليكون مناط الرسالة الإلهية :

فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ

إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٢٨) فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿

(الحجر / ٢٨، ٢٩)

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿

(الأحزاب / ٧٢)

ولم يتركه يتخبط في ظلمات الجهل، أو يعتمد على عقله المحدود القاصر في البحث عن وسيلة القيام بأداء الأمانة، فقد أرسل إليه الرسل وأنزل عليهم الكتب ليخرجوهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويرسموا لهم معالم السير إلى ربهم حسب المنهج الذي ارتضاه خالقهم وتعبدهم به .

ولما كان القرآن الكريم كتاب الله الخاتم ودستوره الخالد للبشرية جميعاً إلى يوم القيامة أنزله على خاتم أنبيائه ورسله، فقد اشتمل القرآن على جميع أنواع الفضائل والكمالات التي احتوتها الكتب السماوية السابقة كما اشتمل على جميع الحلول لمشاكل الإنسانية باعتبارها مشاكل متولدة عن السلوك البشري مطلقة عن الزمان والمكان،

مع العناية الفائقة بالفطرة الإنسانية لتوجهها نحو الكمالات النفسية والقيام بدور العبودية والاستخلاف على الأرض، لذا كان هذا القرآن كما وصفه منزله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ
الْحَقِّ ۚ ﴾

(المائدة / ٤٨)

ولما كان القرآن الكريم صلة الوصل بين عالم الغيب - غير المحدود بزمان ومكان - وعالم العلم الشامل الكامل المحيط الذي لا تحول المادة بكثافتها وحجبها عن إدراك حقائق الأمور، ولا تحول المسافات المكانية دون الوصول إلى سبر أغوار الأشياء، ولا الأزمنة الماضية ولا المستقبلية عن الإحاطة بالأسرار في الكون.

وبين عالم المادة المحدودة، بل وبين عالم الكرة الأرضية، أو بالأحرى عالم الإنسان المحدود في نطاق تفكيره، وآفاقه الخاضعة لظلمات المادة وكثافتها ومقاييس العقل البشري وحدوده، والمشاعر الإنسانية وتقلباتها وارتقاءاتها وتطلعاتها.

ومهما كانت لغة التفاهم والتخاطب دقيقة وواضحة، فإن رؤية الحقائق المراد التعبير عنها تحتاج إلى تبسيط وتقريب وضرب أمثال لكي يستطيع الإنسان إدراك جوانب منها.

لذا كانت أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته توقيفية فلا يجوز التصرف فيها ولا قياسها على معلوماتنا أو معارفنا المادية فلا يجوز فيها التشبيه كما لا ينبغي إفراغها من مدلولاتها فيؤدى إلى التعطيل.

ومع كل ما تقدم فإننا نستشعر في كثير من الأحيان بأن المستوى الذي نخاطب به في القرآن الكريم يريد الإرتقاء بنا من ثقل المادة وكثافتها والتحليق في أجواء من السمو والرفعة ، والحدة في الذكاء وحضور البديهة وسرعة الفهم ، والارتقاء في الروح ، نشعر بأنه مستوى لا يدركه إلا أولو العزم من الناس الذين يعايشون النص الكريم بذراتهم ووجودهم كله ، وهذا مجال واسع لاستشفاف المعاني فإن حالة قارئ القرآن النفسية والفكرية لها أثر كبير على إدراك المعاني ولكل مسلم مثقف عايش القرآن الكريم تجربته الخاصة في هذا المجال .

إن الأسلوب القرآني باعتباره كتاب الهداية البشرية جاء مخاطباً الكينونة البشرية بأدق أسلوب من حيث الدلالة على المعنى ، وبأيسر عبارات من حيث إمكان الفهم ، وبأعذب الكلمات من حيث الإنسياب إلى شغاف القلب ، فجمع بين الفخامة التي تتولد منها الجلالة والتعظيم المحجب ، وبين العذوبة التي تتولد منها الطلاوة والحلاوة في السمع والبشرة والقلب .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كَتَبْنَا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ
ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۖ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا

(الزمر / ٢٣)

لَهُ ۖ مِّنْ هَادٍ ﴿٢٤﴾

كل ذلك لحمل الإنسان على إدراك مهمته في الحياة ومسئوليته تجاه هدايات القرآن ليقوم بدور العبودية على الوجه المطلوب .

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ
صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(الأنعام / ١٦١-١٦٣).

وصلى الله على سيدنا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم مراجع البحث :

- | | |
|----------------------|--|
| ابن كثير | ١ - تفسير القرآن العظيم |
| الفخر الرازي | ٢ - مفاتيح الغيب |
| سيد قطب | ٣ - في ظلال القرآن |
| إبراهيم زيد الكيلاني | ٤ - تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام |
| جمال الدين القاسمي | ٥ - دلائل التوحيد |
| أبو منصور البغدادي | ٦ - أصول الدين |
| محمد عبدالله دراز | ٧ - الدين |